برهان الإسلام الزرنوجى
حوالى (٥٣٩/٦٢٠هـ)

غموض حياة :

على الرغم من التقدير البالغ الذى حظى به كتاب مؤلفنا المعروف باسم (تعليم المتعلم طريق التعلم)، وما سوف نلمسه من آراء وأفكار على قدر عالٍ من التقدم والعمق، إلا أن صاحبنا، ولا ندرى كيف ولماذا ؟ من أكثر من صادفنا غموضًا فى النشأة والوفاة، حيث لم تهتم به كتب الطبقات والتاريخ به مثلما اهتمت بأمثاله .

وإذا كنا استخدمنا اسم "برهان الإسلام"، فهناك من يستخدمون "برهان الدين"، وعلى أية حال فاسم "برهان الإسلام" من الأسماء المألوفة فى أفغانستان وإيران وخراسان، حيث نجد شمس الإسلام، شمس الرحمن، و شمس الضحى، وضحى الإسلام، وسميع الله ... إلخ، وكلها ألقاب دينية يقصد بها إظهار صاحبها بمظهر المتدين والمجاهد فى سبيل الإسلام وإعلاء الإسلام (محمد عبد القادر، ص ١٠).

وصاحبنا ينسب إلى "زرنوج" وهى من بلاد الترك، وهى بلد من بلاد ما وراء النهر، من أعمال تركستان. وبلاد ما وراء النهر التى تقع فيها زرنوج بلدة مفكرنا هى البلاد التى أطلقها العرب على المنطقة الواقعة فى حوض نهرى جيحون وسيحون، ولم تكن هذه المنطقة وفقًا لمفهوم الجغرافيين المسلمين تدخل ضمن تركستان، ذلك أن هذا الاسم الأخير إنما كان يقصد به بلاد الترك عامة؛ أى الأصقاع المترامية الأطراف التى تمتد بين بلاد الإسلام والصين والتى كان الرحّل من الترك والمغول يقطنونها (محمد عبد القادر، ص ١٢).

وفترة حياة الزرنوجى المشار إليها فى العنوان إنما هى احتمال، حيث لا نجد بين أيدينا من يرجح فترة معينة محددة البداية والنهاية، الميلاد والوفاة .

وأغلب الظن أن نشأة برهان الإسلام أو برهان الدين كانت فى بلده زرنوج، ولا نعلم شيئًا عن نشأته الأولى، ومراحل حياته، فلم يكن الزرنوجى أديبًا كبيرًا، أو شاعرًا مشهورًا حتى نستخلص من كتبه وشعره شيئًا عن نشأته، وتدرجه فى مراحل حياته، كما أن الكتب القليلة التى أوردت ذكر اسمه وقفت عند ذلك ولم تزد بما يلقى الضوء على بعض مراحل حياته، ولم تتحدث عن تنقلاته، وعلاقته بالمجتمع الذى حوله .

وقد أخذ الزرنوجى العلم على عدد من مشايخ وعلماء عصره المشهورين والمكثرين من التصنيف فى الفقه والأدب، يجمعهم قاسم مشترك وهو كونهم من الأحناف، ولا شك أن دراسة المرء العلم على رجال من مدرسة فكرية ومذهبية واحدة، وخصوصًا المدارس التى تكونت لها جذور علمية عميقة ولعبت دورًا مجتمعيًّا مهمًّا، إن هذه الدراسة تترك عليهم بصماتها واضحة ثابتة على منهجهم العلمى الذى لن يحمل سوى متابعة ذات التوجه الفكرى ولا يحيد عن طريقه، وذلك مما يمكن أن يدرك بسهولة تامة (مروان قبانى، ص ٢١٢).

ومرجعنا الرئيسى فى التعرف على مشايخه هو كتابه نفسه، حيث ذكر فيه عددًا منهم وأورد أقوالاً تنسب إليهم .

وقد ألم الزرنوجى أيضًا بالثقافة الفارسية والهندية، فقد كان يجيد اللغة الفارسية، وفى بعض العبارات فى كتابه (تعليم المتعلم ...) والثقافات الفارسية والهندية فى عصره من الأسس التى قامت عليها الحياة العقلية فى المنطقة التى عاش فيها (اعتدال حجازى، ص٩)، شأنه فى ذلك شأن كل سكان المنطقة، ويتضح ذلك من خلال ما أورده من شعر باللغة الفارسية.

أما أشهر من أكثر النقل عنه فى مواضع عديدة من الكتاب فهو برهان الدين على بن أبى بكر المرغيتانى المتوفى عام٥٩٣هـ/١١٩٧م، وصاحب كتاب الهداية فى الفقه وكثير من التصانيف، وهو من كبار فقهاء الأحناف فى عصره .

وقد عرف برهان الإسلام الزرنوجى بأنه مؤلف كتاب (تعليم المتعلم)، ولم يشتهر كتابه

بنسبته إليه، عكس كثير من المصنفين، فقد ترجم له غير واحد بأنه "... مصنف كتاب تعليم المتعلم"، وهذا دليل على شهرة أمر الكتاب لأهميته مع قلة المعلومات حول صاحبه (مروان قبانى، ص ٢٢).

كما أننا يمكن أن نستنتج فائدة أخرى وهى أن هذا الكتاب هو المصنف الوحيد الذى كتبه الزرنوجى، ولم يكن له إنتاج علمى آخر، لا فى التربية ولا فى الفقه أو فى غيره، طالما أن جميع من حكى عنه اكتفى بذكر كتابه هذا .

لكننا من ناحية أخرى يمكن أن نتساءل : ألا يكون من المحتمل أن تكون للرجل مؤلفات أخرى، لكنها اندثرت، وضاعت، بفعل العوامل المتعددة التى ابتليت بها منتجات الحضارة الإسلامية، غارات وغزوات من خارج، كان من أبرز أعمالها حرق الكتب وإغراقها فى مياه الأنهار ؟

ونحن نعرف من مبادئ التأريخ وأصوله أن المفكر هو ابن عصره، وإذ عاش الزرنوجى غالبًا بين القرنين السادس والسابع الهجريين، فلا بد وأن نعلم أن هذين القرنين قد حملا الكثير من ملامح القرون السابقة التى شهدت انفصالاً حقيقياً بين الأوضاع السياسية وبين ازدهار المدنية الإسلامية، ففى الوقت الذى نرى فيه الصراع السياسى وتفكك الدولة الكبرى إلى إمارات ومناطق نفوذ، ندهش لما أنتجته تلك المدنية من أفكار وعلوم، وعلماء وأدباء فى شتى نواحى المعرفة (مروان قبانى، ص ٢٦) .

بيد أن مزيدًا من التأمل فى هذه القضية التى أثيرت عدة مرات، يمكن أن يفسر لنا الأمر، فإلى جانب ما سبق أن أشرنا إليه من أن النتاج الفكرى الحضارى عادة ما يتأخر ظهوره، ومن ثم فقد نجد إنتاجًا لا يتسق مع الحالة السياسية القائمة، نقول، إلى جانب ذلك، فلربما كان هناك – فى حالة التجزئة – طاقة نور، تمثلت فى تنافس قام بين الحكام، كل يريد أن يظهر تفوق نظامه بأن يحتضن عددًا من العلماء والمفكرين ويجزل لهم العطاء، فتظهر أعمال، ويظهر نمو فى الحركة الفكرية إلى حدٍّ ما .

وفى خلال هذه الفترة ظهر على سطح الحياة الإسلامية حدثان كبيران كان لهما أثر كبير فى

حضارة العرب والإسلام، الحدث الأول : الغزو المغولى، والحدث الثانى: الحملات الصليبية، وقد جاءت هذه الفترة بين العصرين، العصر العباسى الرابع (عصر النفوذ السلجوقى)، والعصر العباسى الخامس (عصر النفوذ المغولى)، وقد اعتبر المسلمون والعرب هذين الحدثين خطرًا يهدد كيان الأمة الإسلامية تطلب حدوث صحوة ليست عسكرية فقط، وإنما امتدت لتشمل العلم والفن والاقتصاد والزراعة، كما تطلبت الكشف عن أصالة الجذور القديمة للأمة الإسلامية (محمد عبد القادر، ص ٢٥).

وهكذا، فعندما تتعرض شجرة حضارة الأمة إلى إعصار كله ظلمات من تحتها حقد متأجج، ومن ورائها دمار ماحق، عندئذٍ يهرع ذو الحس السليم والعقل الراجح والإرادة الواثقة والنظرة الممتدة إلى غيب المستقبل، يهرع إلى الأصول، إلى الجذور يريد أن يتأكد من سلامتها وتماسكها، فعند تهديد الأركان نعود إلى أسس البنيان (سيد عثمان، ١٩٨٩، ص ٨٥)، وكانت فترات الحروب الصليبية فى المشرق المسلم تهديدًا للحضارة الإسلامية، وكان رد الفعل الثقافى هو الرجوع إلى القرآن والسنة، وكان هذا دليلاً على سلامة الفكر الإسلامى وغناه بعناصر القوة والثبات أمام التهديد الخارجى، وكان مما عزز رد الفعل هذا تعدد المذاهب الكلامية والفلسفية، وتفرق الشيع والإيغال فى البعد عن الأصول والمغالاة فى التباعد بين الفرق والمذاهب والاتجاهات، فكانت العودة إلى أصل الأصول، القرآن والسنة، رد فعل ثقافى لتهديد التفرق الممزق من الداخل، كما كانت رد فعل لتهديد الغزو المدمر من الخارج (سيد عثمان، ١٩٨٩، ص٨٦).

من أخطأ الطريق ضل :

هى نفس عبارة مفكرنا، صدر بها كتابه، كاشفًا عما دفعه إلى كتابته، فهو قد لاحظ أن الإقبال على طلب العلم والحمد لله كان قائمًا على قدم وساق، لكن المشكلة أن طلبة العلم لم يدركوا أن طلبه ليس عملاً عشوائيًّا، بل هو عمل علمى فنى، يقوم على طرق وأساليب ومنهج ومبادئ لا بد من العلم بها، وهو ما قصد به من كلمة "الطريق"، فالطريق هنا هو منهج

التفكير والعمل . ولعمرى، إنها لنظرة تسبق زمنها، تؤكد على أن التعلم يحتاج إلى أن يكون "مهنة"، بمعنى أن يقوم على أصول فنية وقواعد علمية، فضلا عن ممارسات صادقة متقنة .

وينفى سيد عثمان أن يكون قصد الزرنوجى من عنونة كتابه بـ "تعليم المتعلم طريق التعلم" هو السجع الذى كان سمة شائعة، ذلك أن قراءة موضوعات الكتاب تؤكد أن الرجل بالفعل لم يخرج عن موضوع واحد حدده ألا وهو بيان "طريق التعلم" بمعنى كيفية أن يتعلم المتعلم، وهو ما نعنيه فى أيامنا المعاصرة من أن أهم ما ينبغى بالنسبة إلى طالب العلم أن يعرف كيف يتعلم بأكثر مما يجب أن يعرف ماذا يتعلم (سيد عثمان، ١٩٨٨، ص ١٨٤).

وقد عبر الزرنوجى عن هذا بقوله (نسخة محمد عبد القادر، ص ٨١): "...فلما رأيت كثيرًا من طلاب العلم فى زماننا يجدّون إلى العلم ولا يصلون، ومن منافعه وثمراته يُحرمون، لما أنهم أخطئوا طرائقه وتركوا شرائطه، وكل من أخطأ الطريق ضل، فلا ينال المقصود، قلّ أو جلّ، أردت وأحببت أن أبين لهم طريق التعليم على ما رأيت فى الكتب، وسمعت من أساتيذى أولى العلم والحِكَم، رجاء الدعاء لى من الراغبين فيه المخلصين، وبالفوز والخلاص فى يوم الدين" .

ويبرز لنا هذا النص، أيضًا أن المؤلف إنما هرع إلى كتابة الكتاب لا لحاجة عقلية شعر بها، وإنما نتيجة حاجة عملية لمسها لدى بعض طلاب العلم، ولعل هذا الدافع "العملى" هو الذى يميز الكتابات التربوية التى كتبها علماء يغلب على ثقافتهم وتخصصهم، العلم الدينى بالمعنى المتخصص، حيث يتعرضون دائمًا إلى ما يتوجه إليه الناس بالأسئلة عما يفيدهم فى الدين والدنيا.

والقارئ إذ يتتبع موضوعات الكتاب، يمكن أن يلمس مقدار "الحس التربوى"، فى اختيار الموضوعات، ثم "المنطقية" فى تتابع هذه الموضوعات، ومن هنا فهو يبدأ بتحليل وبيان ماهية العلم والفقه وفائدته، ثم ينتقل إلى "النية فى حال التعلم"، وبعد أن ينوى المتعلم السعى لطلب العلم، فلا بد أن ينتقل إلى اختيار العلم والمعلم والزميل ... وهكذا، إلى أن يصل إلى الخطوة الأخيرة التى هى ما يجلب الرزق ...

لماذا يجب طلب العلم ؟

هى قضية لا يكاد يخلو منها كتاب مرب من علماء التربية القدامى، ألا وهى البدء دائمًا ببيان مفهوم العلم وشرفه وفضل طلبه ورواية الأحاديث والآثار التي تحض على طلبه وتشريف أهله وإنزالهم منزلة عالية .

وربما يتساءل المرء عن جدوى تكرار الحديث عن هذه القضية ما دامت معظم كتب التربية التي دونها أسلافنا تبدأ بها الحديث دائمًا ؟

الحق أنها نقطة بداية منطقية، وخاصة في هذه الأزمنة، فنحن الآن على سبيل المثال لسنا في حاجة إلى إقناع أحد بأهمية العلم وفضله وضرورته، فآثاره على حياتنا تحيط بنا من كل جانب، تتحدث بنفسها عن قيمته وفضله، وأننا لا نستطيع الاستغناء عنه، لكن في هذه الأزمنة السابقة، لم يكن العلم التطبيقى هو السائد، بحيث يصبح من المهم بالنسبة إلى طلاب العلم أن يقف العالم وقفة ولو بسيطة "يؤسس" لما هو مطلوب من جهد وكد ومكابدة، ويكون المدار هنا عن قيمة المعرفة وأهمية طلب العلم.

فإذا كان الزرنوجى قد بدأ بالاستشهاد بحديث رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، فيما رواه ابن ماجة، فماذا فهم مفكرنا من العلم المقصود هنا ؟ قال الزرنوجى: "اعلم أنه لا يفترض على كل مسلم طلب كل علم، وإنما يفترض عليه طلب علم الحال" (طبعة محمـد عبد القادر، ص ٨٣)، المقصود بعلم الحال هنا، علم أصول الدين وعلم الفقه، والمراد من الحال هنا الأمر العارض للإنسان في حياته؛ كالإيمان ومعرفة أحكام العبادات والمعاملات الضرورية، وطرائق السعى إلى الرزق والعمل لاكتساب ما يحفظ الرمق، فلأجل أن يكون مؤمنًا يجب أن يتعلم ما يصل به إلى الإيمان من علم أصول الدين . ولأجل أن يعرف ما فرضه الله عليه من واجبات يجب أن ينظر في علم الفقه ليعرف حدود ذلك، ولأجل أن يتعرف سبل السعى إلى الرزق والحصول على المعاش يجب أن يتعلم من علوم الحياة ما يستطيع تعلمه .

ولعل ما يجعل العلم مقصدًا لا بد أن يتطلع إليه الإنسان وتعز به الأمة، أنه من أبرز

العلامات التي تختص بإنسانية الإنسان، ذلك أننا لو تأملنا جيدًا الكائنات الحية المختلفة، فسوف نجد أن الإنسان يتفق مع كثير منها في معظم الخصائص والأحوال، ما عدا "العلم"، مثل الشجاعة والجرأة والقوة والجود والشفقة وغيرها، فبالعلم أظهر الله تعالى فضل آدم على الملائكة وأمرهم بالسجود له، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وإذا كان "العلم" من مظاهر إنسية الإنسان، ربما يظل التساؤل مستمرًا عن جدوى هذا العلم للإنسان، وخاصة في هذا الزمان الذى لم يكن العلم التطبيقى شائعًا بمنتجاته وآثاره ؟ هنا يقول الزرنوجى أن العلم يستمد شرفه من "التقوى"، وهذه القيمة المركزية هى التي يمكن أن يكتسب بها الإنسان الكرامة عند المولى – سبحانه وتعالى– وإنما صار العلم وسيلة إلى التقوى، لأن الاتقاء عما نهى الله عنه موقوف على العلم به، فلو لم يكن معلومًا، فكيف يتقى عنه؟ وإذا حصل التقوى عن محارم الله تعالى فاز بالسعادة الأبدية والوصول إلى أعلى مراتب الجنان، وهذا استدلال على كون العلم وسيلة للتقوى (محمد عبد القادر، هامش ص ٨٦).

ومن هنا رأى الزرنوجى أهمية الاستشهاد بقول القائل شعرًا :

تعلم فإن العلم زيْن لأهلــه — وفضل وعنــوان لكـل المحامــد
وكن مستفيدًا كل يوم زيادة — من العلم واسبح في بحور الفـوائد
فإن فقيهًا واحــدًا متورعــًا — أشد على الشيطان من ألف عابد

والأمر نفسه في سائر الأخلاق، نحو : الجود، والبخل، والجبن، والجرأة، والتكبر، والتواضع،

والعفة، والإسراف، والتقتير وغيرها، فإن الكِبْر والبخل والجُبن، والإسراف حرام، ولا يمكن التحرز عنها إلا بعلمها وعلم ما يضادها، فيفترض على كل إنسان علمها .

التهيؤ للتعلم :

لحديث رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات"، الذى رواه البخارى، أثر بعيد في كل الكتابات التربوية الإسلامية، ولهذا مغزاه العميق، لأنه يتعلق بأمر داخلى من الصعب على الآخرين أن يتيقنوا منه، فما يجيء من حديث النفس، وتوجه القلب، سر من الأسرار الإنسانية، لا قدرة لأحد على معرفتها إلا الله – سبحانه وتعالى، مما يلقى بمسئولية ضخمة على كاهل المتعلم، فهل هو يطلب العلم للمباهاة؟ أو للتعالى؟ أو لمجرد كسب العيش؟ أو للتنافس؟ إلى غير هذا وذاك من مقاصد، فذلك ما تحدده "النية"، مما يوجب أن تكون الخطوة الأولى على طريق التعلم هى "الصدق مع الذات".

ومن هنا يجيء مغزى ما روى عن رسول الله ﷺ : "كم من عمل يتصور بصورة أعمال الدنيا ويصير بحسن النية من أعمال الآخرة (مثل الأكل والشرب والنوم، فإن صورتها صورة أعمال الدنيا، ويصير كل منها بمقارنة حسن النية من أعمال الآخرة، فإذا قصد بالأكل التقوى للعبادة يصير من أعمال الآخرة، وكذا الشرب والنوم وغيرها)، وكم من عمل يتصور بصورة أعمال الآخرة، ثم يصير من أعمال الدنيا بسوء النية (مثل الأعمال التي تفعل على سبيل الرياء)".

ويرى سيد عثمان (١٩٨٩، ص ١٠٣) أن للنية عند الزرنوجى جانبين : جانب إيجاب، وجانب سلب، أما جانب الإيجاب، فهو تركيزه على أن تكون النية لدى المتعلم لطلب العلم:

- رضاء الله تعالى .
- الدار الآخرة .

- إزالة الجهل عن النفس .

- إزالة الجهل عن سائر الجهال .

- إحياء الدين .

- إبقاء الإسلام .

- الشكر على نعمة العقل وصحة البدن .

أما جانب السلب فهو أن يتجنب أن تخالط نيته في طلب العلم شوائب، منها (ص١٠٤):

- إقبال الناس إليه .

- استجلاب حطام الدنيا .

- الكرامة عند السلطان .

ويدخل فى عملية التهيؤ أن يحمل المتعلم فى قلبه وفى عقله تقديرًا للعلم وأهله، إذ كيف يقبل إنسان على طريق من غير أن يكون مؤمنًا، عقلاً وقلبًا بجدوى وقيمة هذا الطريق ؟ فمن المعروف أن من أول شروط الإتقان أن يحب الإنسان ما هو مقبل عليه، لا جبرًا واضطرارًا وإنما اقتناعًا ورغبة، "اعلم أن طالب العلم لا ينال العلم، ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله.." (ص ١٠٦).

ولا يقتصر التقدير على "العلم" نفسه، وإنما لمن يقدم العلم وينتجه وينقله، ألا وهو "المعلم" "ومن تعظيم العلم تعظيم المعلم" .

وللبرهنة على أهمية هذا الجانب، ساق الزرنوجى عدة مواقف لسابقين تخلقوا بهذا الخلق الحميد ألا وهو حسن التقدير والاحترام لمن سبق أن علّمنا – أو لا يزال – حيث حكى أن واحدًا من كبار أئمة بخارى كان يجلس مجلس الدرس، وكان يقوم فى خلال الدرس أحيانًا، فسألوه عن ذلك، فقال : إن ابن أستاذى يلعب مع الصبيان فى السكة، ويجىء أحيانًا إلى

obeikandl.com

باب المسجد، فإذا رأيته أقوم له تعظيمًا لأستاذى (ص ١٠٨).

بل لقد وصل الأمر بالخليفة هارون الرشيد أنه بعث ابنه إلى الأصمعى ليعلمه العلم والأدب فرآه يومًا يتوضأ ويغسل رجله وابن الخليفة يصب الماء على رجله، فعاتب الأصمعى فى ذلك بقوله : إنما بعثته إليك لتعلمه وتؤدبه، فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه، ويغسل بالأخرى رجلك ؟ (ص١١٠).

وصية الإمام أبى حنيفة :

في الصفحات الأولى لكتاب الزرنوجى، ينصح طالب العلم بأن يستوعب جيدًا وصية نسبت للإمام أبى حنيفة، واهتمام الزرنوجى بهذه الوصية، يدفعنا إلى أن نثبتها هنا، إذ إن تبنى الزرنوجى لها، يعنى تبنيه لما حوته من أفكار وآراء، ونحن هنا ننقلها عن (محمد عبد القادر، هامش ص ٩٦، ٩٧):

"اعلم أنك متى أسأت عِشرة الناس، صاروا لك أعداء، ولو كانوا لك أمهات وآباء، وأنك متى أحسنت عِشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء، كأنى بك وقد دخلت البصرة، وأقبلت على المخالفة بها، ورفعت نفسك عليهم، وتطاولت بعلمك لديهم، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم، وهجرتهم وهجروك، وشتمتهم وشتموك، وضللتهم وضللوك وبدَّعتهم (أى نسبتهم للبدعة) وبدَّعوك، واتصل ذلك للشين بنا وبك، واحتجت إلى الهرب والانتقال عنهم، وليس هذا برأى، إنه ليس بعاقل من لم يدار من ليس لمداراته بد حتى يجعل الله له مخرجًا ..

إذا دخلت البصرة واستقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك، فأنزل كل رجل منزلته، وأكرم أهل الشرف، وعَظّم أهل العلم، ووقر الشيوخ، ولاطف الأحداث، وتقرب من العامة، ودار الفجار، وأصحب الأخيار ولا تتهاون بسلطان، ولا تحقرن أحدًا ولا تقصرن في مروءتك، ولا تخرجن سرك إلى أحد، ولا تثق بصحبة أحد حتى تمتحنه، ولا تخادن خسيسًا، ولا

وضيعًا، ولا تألفن ما ينكر عليك في ظاهره، وإياك والانبساط إلى السفهاء ... واعمل في زيارة من يزورك، والإحسان إلى من يحسن إليك أو يسيء، وخذ العفو، وأمر بالعرف ، وتغافل عما لا يعنيك، واترك كل ما يؤذيك، وبادر في إقامة الحقوق، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك، وتعاهده برسلك، ومن غاب منهم افتقدت أحواله، ومن قعد عنك منهم فلا تقعد أنت عنه...

وأظهِر تودداً للناس ما استطعت، وافشِ السلام ولو على قوم لئام، ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس، أو ضمك وإياهم مسجد وجرت المسائل، وخاضوا فيها بخلاف ما عندك، لم تبدَ لهم، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم، ثم تقول : فيها قول آخر، هو كذا وكذا ولحجة كذا وكذا، فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك، فإن قالوا : هذا قول من ؟ قل : بعض الفقهاء . وإذا استمروا على ذلك وألفوك عرفوا مقدارك وعظموا محلك .

وأعط كل من يختلف إليك نوعًا من العلم ينظرون فيه، ويأخذ كل واحد منهم بحفظ شيء منه، وخذهم بجلى العلم دون دقيقه، وآنسهم ومازحهم أحيانًا، وحادثهم فإن المودة تستديم مواظبة العلم، وأطعمهم أحيانًا، واقض حوائجهم، واعرف مقدارهم، وتنازل عن زلاتهم، وارفق بهم وسامحهم، ولا تبدِ لأحد منهم ضيق صدر أو ضجرًا، وكن كواحد منهم واستعن عن نفسك بالصيانة لها، والمراقبة لأحوالها .

ولا تكلف الناس ما لا يطيقونه، وارض لهم ما رضوا لأنفسهم، وقدم إليهم حسن النية، واستعمل الصدق، واطرح الكِبر جانبًا، وإياك والغدر وإن غدروا بك، وأدِّ الأمانة وإن خانوك، وتمسك بالوفاء، واعتصم بالتقوى، وعاشر أهل الأديان وأحسن معاشرتهم".

حسن الاختيار ضمان لجودة التعلم :

مما تميز به الإنسان على سائر خلق الله، قدرته على الاختيار، حتى أنه ليقع موقعًا متميزًا فى بعض الفلسفات المعاصرة، فبناء على اختيارات الإنسان يتحدد كثير من توجهاته ومن ثم مصير كل منها، ومدى حظه من التوفيق أو الفشل .

ومجالات الاختيار هنا تشمل ثلاثة مجالات : التخصص، والمعلم، والزميل، وعلى الرغم من نفورنا من التمجيد المستمر الذى يسرف فيه بعض من يؤرخون للتربية الإسلامية، حيث نميل إلى عدم التغافل عن أوجه السلب، وضرورة الالتزام بالحيادية بقدر الإمكان، وأننا لسنا من الملائكة، لا نفعل إلا كل ما هو حسن، بل المسلمون بشر يصيبون ويخطئون مثل غيرهم، نقول على الرغم من نهجنا هذا، لكننا حقًا لا نستطيع أن نكتم مدى "تقدمية" الزرنوجى فى هذه القضية، والتى قد لا يستطيعها عدد غير قليل من طلاب العلم فى عالمنا المعاصر الذى يتسم بكذا وكذا من سمات العدل والديمقراطية !!

وبالنسبة إلى المجال الأول، التخصص، فيؤكد الزرنوجى على طالب العلم "أن يختار من كل علم أحسنه"، والمعيار فى الاختيار هو "ما يحتاج إليه فى أمر دينه فى الحال"، ثم "ما يحتاج إليه فى المآل"، فهو هنا يسفر عن تكاملية النظرة إلى الدين والدنيا، فضلاً عما يظهره من "عقلانية" إسلامية رشيدة، حيث ينصح المتعلم بـأن يكون طريق معرفته بالله – سبحانه وتعالى- "بالدليل"، وهو إقراره بصحة إيمان المقلد "لكن يكون آثمًا بترك الاستدلال" (طبعة محمد عبد القادر، ص ٩٩).

وقد صنف الزرنوجى العلوم إلى: ضارة، ونافعة، والمسلم مطالب بالاستزادة من العلوم النافعة، والعلوم النافعة منها علم الحديث والتفسير والتوحيد والفقه . لكن الزرنوجى طالب المتعلم أن يقدم التوحيد والفقه فى بداية طلبه لأى نوع من العلوم والمعارف، ثم يتزود بالعلوم المباحة؟ كالتجارة والزراعة والصناعة والطب. ومع الأسف الشديد، فقد حذر الزرنوجى من الاشتغال بالفلسفة، ولربما كان الدافع وراء ذلك ما روَّجه بعض المشتغلين بالفلسفة من آراء وأفكار تمس أساسيات الدين، فضلا عن التنافس والصراع الذى قام بين المتفلسفة والفقهاء (اعتدال حجازى، ص ٥٠).

أما بالنسبة إلى المجال الثانى، وهو المعلم، فيكون الاختيار وفقًا لما يلى :

١- العلم، حيث يجب أن يكون المعلم ذا علم كثير، خاصة فى المجال الذى يقوم بالتعليم فيه .

٢- الورع، حيث يجب أن يكون مترفعًا عن سفاسف الأمور، وأن لا يحمل فى نفسه الأحقاد على الغير، وأن يكون خاليًا من الحسد، وهذه الصفات لا تجتمع إلا مع الورع.

٣- السن، فهو ضرورى لتوفر الخبرة لدى المعلم، لأنه كلما كان المعلم ذا خبرة علمية طويلة، فإنه يكون أكثر فائدة للمتعلم، ويستشهد بذلك بما فعله أبو حنيفة حين اختار معلمه "حماد ابن سليمان الأشعرى"، حيث قال عنه: "وجدته شيخًا وقورًا حليمًا صبورًا" (ص١٠٠)، وهو فى ذلك ينصح بالاعتماد على "المشاورة"، فإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بالمشاورة فى كل الأمور، ولم يكن أحد أفطن منه، ومع ذلك أُمر بالمشاورة فى كل الأمور، وكان يشاور أصحابه فى جميع الأمور حتى حوائج البيت.

وأهمية اختيار المعلم لا تقف فقط عند ضمان أن يجد المتعلم لديه الزاد المعرفى الجيد المتعمق، ولكن، يضاف إلى ذلك أن يكون المتعلم "مستقرًا" لدى هذا المعلم أو ذاك، فعدم التدقيق فى الاختيار قد ينتج عنه أن المتعلم ربما يكتشف ضعفًا أو مللا، فيضطر إلى ترك المعلم، باحثًا عن آخر، وفى هذا التنقل إضعاف لفرص الاستفادة المستقرة المتخصصة، حيث إن لكل معلم نهجه وطريقته فى التعليم .

فإذا جئنا إلى المجال الثالث ألا وهو "الشريك" أو "الزميل" وفق تسمياتنا المعاصرة، فنحن نعلم ما يحمله المثل القائل "اختر الرفيق قبل الطريق"، وكذلك: "المرء بقرينه يقرن"، وغير هذا وذاك من أقوال وأمثال، ويكون المعيار هنا فى الاختيار أن يختار المُجد والوَرِع وصاحب الطبع المستقيم، ويفر من الكسلان والمُعَطّل والمكثار والمفسد، ويستشهد بقول الشاعر (ص١٠٥) :

إن كنت تبغى العلم من أهله ... أو شاهدًا يُخبِر عن غائب
فاعتبر الأرض بأسمائها ... واعتبر الصاحب بالصاحب

وهكذا نجد أن نظرة الزرنوجى إلى الاختيار - سواء اختيار العلم أو المعلم أو الشريك فى العلم- نظرة شاملة لذات المتعلم، مستقلة بحريته ومسئوليته، وهذا يتسق مع عقيدة الإسلام

التى كرمت الإنسان بعقله وقلبه وعبوديته لله، وجعلته مسئولا عن ذاته ودوره وبالتالى مجتمعه (اعتدال حجازى، ص ٥٣).

المجاهدة العلمية :

طلب العلم ليس عملاً يسيرًا، وإنما هو صورة من صور المجاهدة التى تتطلب تضحية، وتحتاج أن يترك لها المتعلم نفسه ووقته وهمته، ويتحمل إنفاق الوقت والجهد والمال بغير ملل ولا فتور، وهذا ما جعل الزرنوجى يفرد فصلاً فى كتابه عنونه بقول (فى الجد والمواظبة والهمة)، مؤكدًا أن هذا المعنى هو نفسه على وجه التقريب ما أراده المولى عز وجل فى قرآنه المجيد بقوله فى سورة العنكبوت: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾، وقوله فى سورة مريم ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ ﴾، فمن جدّ فى طلب العلم وأخلص له الطريق، وواظب على الطلب بهمة وفاعلية فهو يحشر ضمن المجاهدين الذين وعد – سبحانه وتعالى– بأن يهديهم سواء السبيل . والأمر ليحيى –عليه السلام– بأن يأخذ الكتاب بقوة يعنى به أيضًا الجدية والمواظبة والهمة (طبعة محمد عبد القادر، ص ١١٧)، وهوفى ذلك يستشهد بقول شاعر :

يا طالب العلم باشر الورعا وجنّب النوم واترك الشبعا

داوم على الدرس لا تفارقه فالعلم بالدرس قام وارتفعا

وحتى لا ينصرف ذهن القارئ لتصور أن يكون القصد من ذلك، الانقطاع عن الدنيا ووصل الليل بالنهار والغلو فى العمل والمذاكرة والمواظبة، يسرع الزرنوجى ليحذر من ذلك، فكتب يقول: "ولا يجهد نفسه جهدًا، ولا يضعف النفس حتى ينقطع عن العمل، بل يستعمل الرفق فى ذلك". وهو فى نصيحته بالرفق إنما يمتثل لفلسفة الإسلام فى الاعتماد على الرفق، حيث جاء فى حديث رسول الله ﷺ : "ألا إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تُبَغّض على نفسك عبادة الله تعالى، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى" (ص١٢١).

والهمة باعثة على الحركة، بل هى فى ذاتها حركة داخلية تؤدى إلى حركة خارجية أو سلوك يتميز بالإقبال والحماسة . ونلاحظ مع سيد عثمان (١٩٨٩، ص١٠٥) أن الزرنوجى فى كلامه عن الهمة قد ربط بينها وبين العمل، أى أنه لم يقف عند كونها حالة استعداد أو باعثًا داخليًا للعمل، بل أكد ضرورة أن تقترن الهمة العالية بالجد والمواظبة، كما ترتبط بالاهتمام وعدم التهاون فى الأمور.

بل إنه يخطو خطوة أبعد تتضمن نفاذًا وبصيرة نفسية تلفت نظر النفسانى المعاصر عندما يبين أمرين : الأول، أن المواظبة، أو العمل أو السلوك يؤدى إلى تحريك الهمة، أى أن العلاقة بين الهمة والعمل، أو الانفعال والسلوك علاقة تبادلية، بحيث تؤدى الهمة إلى جد ومواظبة، بينما يؤدى الجد والمواظبة إلى الهمة .

ومن سبل المجاهدة العلمية أن يعدد المتعلم من المصادر التي يتلقى العلم منها، وخاصة العلماء "ويكون مستفيدًا في جميع الأحوال والأوقات من جميع الأشخاص" (ص ١٤٢)، والسند الشرعى لذلك هو قول رسول الله ﷺ: "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها"، ولهذا قال أبو يوسف : ما استنكفت من الاستفادة من كل أحد، وما بخلت من الإفادة .

أصول للتعلم :

كتاب الزرنوجى كله، كما قدمنا يكاد يكون مركزًا على عملية التعلم بصفة خاصة، وعملية التعليم بصفة عامة، وفى كل ما عرضنا له حتى الآن يتناول جوانب من عملية التعلم، لكنا آثرنا إفراد عنوان خاص بمبدأين وجدنا الرجل يركز عليهما بشدة، فضلاً عما نلمسه ونعرفه في زمننا المعاصر من أهمية بالغة لهما، هذان المبدآن هما : التدرج، والفهم، وإن بدا أحيانًا لا يفصل بينهما، فهو يتكلم عن تدرج ما، يقرنه أيضًا بالفهم، حيث لا نجد الفهم خطوة أو عملية تختص بفترة معينة أو بمنهج بالذات أو بمرحلة خاصة، وإنما هو أقرب إلى أن يكون "نهجًا" له صفة الاستمرار .

فهو إذ يتحدث عما أسماه "قدر السبق"، فهو يقصد مقدار التعلم وخاصة في الابتداء، وتحديده ينبنى على ما يستطيعه المتعلم في مبتدأ أمره على طريق التعلم، ويلفت نظرنا نصه على أن يكون ذلك "بالرفق"، على أن يشهد كل يوم قدرًا من التقدم، فضلا عن ضرورة التكرار، فيما يسميه بالإعادة (سيد عثمان، ص ١٣٥).

وإذا كان معيار اختيار "قدر السبق" هو ما يستطيعه المتعلم، فإن الزرنوجى يضيف إلى ذلك "أن يكون أقرب إلى فهمه، ولعل هذا هو المقياس العملى لما يستطيعه المتعلم، ألا وهو قدرته على استيعاب موضوع التعلم وفهمه. مع ملاحظة أن هذا القدر أيضًا لا بد أن يكون متسمًا بما تتسم به البدايات وأوائل الطريق، من حيث "البساطة"، حيث إن هذا من شأنه أن يجنب المتعلم "الملل".

ولعل ما يمكن تسجيله من وعى تربوى للزرنوجى هو هذا الإلحاح على "الفهم"، حيث ينصح: "ولا يكتب المتعلم شيئًا لا يفهمه، فإنه يورث كلالة الطبع ويُذهب الفطنة، ويضيع أوقاته" (ص ١٣٦).

ومن جميل ما نقرأ في كتاب الزرنوجى، ترجمة بعض مبادئ التعلم في أبيات من الشعر، فالشعر كما هو معروف يضفى زينة وجمالا بما يحمله غالبًا من التشبيهات وتقريب المعانى وحلو الألفاظ، فمن حيث الفهم والتأمل والتكرار والمداومة :

اخدم العلم خدمة المستفيد ... وأدم درسه بفعل حميد
وإذا كنت حفظت شيئًا أعده ... ثم أكده غاية التأكيد
ثم علقه كى تعود إليه ... وإلى درسه على التأييد
وإذا ما أمنت منه فواتًا ... فانتدب بعده لشىء جديد
مع تكرار ما تقدم منه ... اعتناء بشأن هذا المزيد
ذاكر الناس بالعلوم لتحيا ... لا تكن من أولى النُّهى ببعيد
إن كتمت العلوم أنسيت حتى ... لا تُرى غير جاهل وبليد

ثم ألجمــت في القيامــة نـارًا وتلهبت في العذاب الشديـد

فمن المبادئ التربوية التي حملتها هذه الأبيات الشعرية :

- طلب العلم لا بد أن يكون قائمًا على النفع .

- الحفظ يستلزم مداومة التكرار .

- إذا تأكد المتعلم من موضوع وتمكن منه، يمكن له أن ينتقل إلى غيره .

- لا تكن من ذوى العقول ببعيد لأن صحبتهم تفيد منافع الدنيا والآخرة .

- لا ينبغى كتمان ما نعلم عن الغير، فهذا يمكن أن ينسينا إياه، فضلا عما توعد به رسول الله ﷺ من عذاب أليم سيصيب كاتمى العلم، وهذا من شأنه أن يساعد على إذاعة العلم ونشره .

ومما يرسخ ما يتعلمه المتعلم دوام المذاكرة والمطارحة والمناظرة، على أن تخلو المناظرة من الرغبة في التغلب على الآخر، فهى صورة من صور "التشاور"، والتشاور جوهره إظهار الحق، وهذا يتطلب أيضًا التأنى والتأمل والإنصاف، ولا تنال الفائدة منه بالغضب والتوتر والشغب (ص ١٣٩).

وإذا كان الزرنوجى قد أكد على التكرار، إلا أنه إذ يقارنه بالمطارحة والمناظرة، يؤكد فائدة النهج الثانى، لأن فيه مزيدًا من الفهم وبيان أوجه مختلفة للموضوع، بشرط أن يكون المناظر من ذوى الطبيعة غير المعاندة بغير حق .

وحديث الزرنوجى عن المناظرة والمشاورة والمطارحة، هو حديث عن عمليات تقوم على مزيد من الفهم، حيث يضيف إليها عملية "التأمل"، فالتأمل هو مزيد من التفكير، وتقليب المسألة على أوجه مختلفة، وسعى لفهم زوايا الموضوع المتعددة، واحتمالاته المختلفة، وتوقف عن إصدار الحكم قبل التأكد والبحث، ومن هنا فقد أطلق شعاره العظيم "تأمل، تدرك"، ولا بد من التأمل قبل الكلام حتى يكون صوابًا، وقالوا في أصول الفقه: "هذا أصل كبير"، وهو أن يكون الكلام بالتثبت والتأمل .

أخلاقيات التعلم :

لكل منشط إنسانى منظومة من القيم الأخلاقية تضبط الحركة فيه، وما قد يقوم فيه من علاقات، وما يستهدفه من غايات، ومن هذه الأنشطة التعلم والتعليم، ومن هنا فقد اهتم الزرنوجى، مثله مثل الكثرة الغالبة من المربين المسلمين بهذه القضية بحكم مرجعية كل منهم الدينية، حيث الدين معاملة وسلوك .

من ذلك على سبيل المثال ألا يطمع المتعلم فيما أيدى الناس، حيث قال ﷺ : "إياك والطمع فإنه فقر حاضر" . رواه الطبرانى .

ويرتبط بهذا ألا يبخل طالب العلم بما قد يكون متوافرًا في يديه من مال، سواء على نفسه أو على غيره، ولهذا حرص بعض علماء السلف أن يتعلموا حرفة أولاً قبل طلب العلم، حتى يغنيهم العمل عن السؤال، وحتى لا يطمعوا فيما أيدى غيرهم، وهنا يلفت الزرنوجى نظرنا إلى حكمة بالغة العمق، ألا وهى أن العالم إذا طمع فيما أيدى الناس، أفقد العلم حرمته، لأنه في الغالب سوف يترخص في سلوكه، وسوف يجنح في بعض الأحيان إلى مجانبة قول الحق، طمعًا في المال .

لكن حديث الزرنوجى عن قيمة مهمة في أخلاقيات التعلم، ألا وهى "التوكل" يضع علامات استفهام حول ما قد يبدو من تناقض فيما قاله، من حرص بعض العلماء على تعلم حرفة قبل طلب العلم حتى لا يطمعوا في مال الغير، فهو يعود ليؤكد على ضرورة التوكل في طلب العلم "ولا يهتم لأمر الرزق، ولا يشتغل قلبه بذلك" (ص١٥٠)، فبماذا يمكن أن نفسر هذا الموقف ؟ ربما قصد الرجل أولوية في المهام والأعمال، بحيث لا يكون طلب الرزق أهم من طلب العلم، أو يصل الغلو في التكالب على لقمة العيش أن يخضع الإنسان لسلوكيات تُخرجه عن سواء السبيل، أو يجعل ما يتعلم "مطية" لما يعمل من كسب الرزق، وليس العكس، كما هو مفروض.

ويبدو أن ما كتبه الزرنوجى عن التوكل قد استفز الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى حيث وجه نقدًا حادًّا له (الأهوانى، ص ٢٣٩) "فإنه بعد أن نصح لطالب العلم بالمذاكرة والمناظرة

والمطارحة والتأنى والتأمل عاد فذكر أشياء لا توصل إلى العلم، وإنما تصلح لغايات أخرى، قال أبو حنيفة: "إنما أدركت العلم بالحمد والشكر"، ويعلق الأهوانى على هذا بأن الحمد والشكر يأتيان بعد تحصيل العلم وليس الحمد والشكر من أسباب تحصيله، وفضلاً عن ذلك فقد أشار الأهوانى إلى قول الزرنوجى: "ولا يعتمد على نفسه وعقله بل يتوكل على الله ويطلب الحق منه". وعلق الأهوانى على ذلك (ص٢٤٠) "وهذه النصائح وأمثالها هى التى بثت فى المسلمين روح التواكل والكسل وعدم الاعتماد على النفس".

لكن الدكتور سيد عثمان (١٩٨٩، ص ١٨٦) ناقش هذه الاتهامات بقدر عالٍ من الموضوعية، وانتهى إلى فهم مغاير، مستندًا إلى خطوات منطقية من خلال عدة وجوه :

أولها، أن التوكل عنصر من عناصر التأهب فيما استخلصه الدكتور سيد من نسق التعلم عند الزرنوجى، ذلك لأن التوكل أصل خلوص النية وعلو الهمة فى التعلم، لهذا جعل ثلاثتها مكونات عنصر التأهب فى نسق التعلم عند الزرنوجى، ذلك لأن فى صدق التوكل تحررًا من العلائق الدنيوية مما يساعد على خلوص النية للتعلم، وأن يكون العلم همّ المتعلم واهتمامه، كما أن صدق التوكل يؤدى إلى توفير الجهد الانفعالى والعقلى والبدنى المبذول فى الاشتغال بالعلائق الدنيوية وتركيزه فى أنشطة التعلم، فالتوكل عند الزرنوجى له دور تأهبى إعدادى تركيزى دافعى فى التعلم.

أما الوجه الثانى، فهو أن الزرنوجى يؤكد فى كثير من مواقع حديثه عن التعلم تأكيدًا قاطعًا متكررًا إيجابية المتعلم، نجد هذا فى تأكيده السفر فى طلب العلم، وتحمل النصَب فى سبيله، وضرورة المطارحة والمناظرة والمذاكرة مع آخرين، وأن يكون هذا بنشاط وقوة وحماسة. كما نجد تأكيده إيجابية المتعلم فى اختيار الأستاذ والزملاء، وفى تسجيل وكتابة ما يسمع، والاهتمام بأمور صحة البدن وعافيته .

أما الوجه الثالث، فهو نصح الزرنوجى المتكرر بتجنب الكسل وكل ما يؤدى إليه، وبضرورة علو الهمة وتسامى المتعلم بها ارتفاعًا كارتفاع الطير بجناحيه .

بعد هذا يتساءل سيد عثمان مستنكرًا : كيف يقال بعد هذا أن فى كلام الزرنوجى دعوة

إلى التواكل والكسل وعدم الاعتماد على النفس (ص ١٨٦)؟

أما رابع الوجوه وآخرها فهو نفى الأهوانى أن يكون الحمد والشكر من أسباب التحصيل، لأنهما يأتيان بعد تحصيل العلم. والواقع أن الأمر هنا متصل بدافعية المتعلم، وبدائرية عملية التعلم من حيث تأثير نواتجها وارتداد هذه النواتج وآثارها على دافعية المتعلم واتجاهه نحو التعلم.

وهذا بالضبط هو المغزى الحقيقى لحديث أبى حنيفة كاملاً، حيث يشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى دافعية التغذية المرتدة، من غير أن يستخدم الرجل مثل هذه المصطلحات الحديثة، حيث قال (سيد عثمان، ص ١٨٧) : "إنما أدركت العلم بالحمد والشكر، فكلما فهمت شيئًا من العلوم ووقفت على فقه وحكمة قلت: الحمد لله تعالى فازداد علمى"!!

ومن أخلاقيات التعلم أن يكون صاحب العلم "مشفقًا ناصحًا غير حاسد، فالحسد يضر ولا ينفع" (ص ١٥٦).

والزرنوجى يميل إلى أخلاقيات التسامح، ولذلك ينصح المتعلم بألا ينازع أحدًا ولا يخاصمه؛ لأن إنفاق الوقت في الخصومات الشخصية والمعارك الانتقامية، تبدد الوقت والجهد، وتهدر الطاقة، وتصرف عن الجهد والوقت اللذين ينبغى أن يحظى بهما طلب العلم نفسه .والزرنوجى ينبه إلى مسألة مهمة ألا وهى أن انشغال طالب العلم بأمر نفسه (في هذا المجال)، وقلة الاكتراث بقهر العدو، هو نفسه يتضمن قهرًا لهذا المتصور عدواً !

والسعى الدائم لتحصيل ما يفيد المتعلم، خلق عظيم ينبغى أن يتحلى به، فهو هنا سوف يكون كجامع الفاكهة، ووفقًا للظروف التي كانت قائمة زمن مفكرنا، نصح المتعلم بأن يحمل معه دائمًا "محبرة"، باعتبارها وسيلة "تدوين" و "تسجيل" لما يسمع من الآخرين مما يمكن أن يفيده على طريق التعلم (ص ١٦١)، فهذا أشبه بأن يحمل المتعلم في زمننا المعاصر "جهاز تسجيل" أو "حاسبًا آليًا شخصيًا محمولاً" "لاب" !! وكما قال الرجل: إن العلم كثير بينما العمر قصير، مما يوجب ألا يضيعٍ المتعلم دقيقة أو فرصة ما في التزود بالمزيد من المعرفة دومًا.

وفى تنبيه الزرنوجى لقيمة "الورع" كقيمة أخلاقية لازمة للمتعلم تنم عن وعى بالعروة الوثقى بين الحالة الوجدانية والحالة العقلية، فمن شأن الورع أن يكسب الإنسان طمأنينة قلب وهدوء بال ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾، فمثل هذه الحالة من الطمأنينة الناتجة عادة عن الورع أن تهيئ المتعلم لتعلم أيسر وأثبت وأكمل .

ومن سبل الورع أن يحترز المتعلم عن الشبع وكثرة النوم، وكثرة الكلام فيما لا ينفع، وكذلك من الورع تجنب الغيبة، ومخالطة كثيرى الكلام، والبعد عن أهل الفساد والمعاصى، وبالعكس بالنسبة إلى الصالحين، حيث تجب مخالطتهم "فإن المجاورة مؤثرة لا محالة" .

أما الحرص على أداء الصلاة، بتمعن وتفرغ بال، وهى صلاة الخاشعين، فهى أفعل السبل لمزيد من الورع .

obeikandl.com

مراجـع

١- أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام أو التعليم فى رأى القابسى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥.

٢- اعتدال بنت عبد الرحمن بن على حجازى : آداب العالم والمتعلم عند الإمام الزرنوجى وجهوده فى التربية، مجلة كلية التربية بجامعة الزقازيق (مصر)، العدد ٦٥، أكتوبر ٢٠٠٩، ج٢.

٣- سيد أحمد عثمان : برهان الإسلام الزرنوجى وكتابه : تعليم المتعلم طريق التعلم، فى (من أعلام التربية العربية الإسلامية) الرياض، مكتب التربية العربى لدول الخليج، ١٩٨٨.

٤- _____: التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٨٩، ط٢ .

٥- محمد عبد القادر أحمد : كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم، تحقيق ودراسة، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٨٦.

٦- مروان قبانى :كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم، بيروت، المكتب الإسلامى، ١٩٨١.